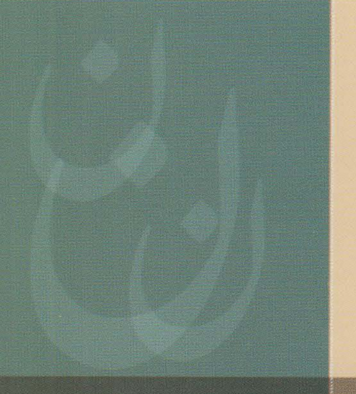
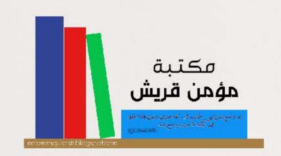


أدبيّات النّهوض



إشكالية الوعي والذاكرة العربية
على ضوء الصراع العربي الإسرائيلي



بيان نويهض الحوت



إشكاليـــة الوعـــي والذاكرة العربية

على ضوء الصراع العربي الإسرائيلي



اسم الكتاب: إشكالية الوعي والذاكرة العربية

المؤلف: د. بيان نويهض الحوت

الناشر: دار المعارف الحكمية

إخراج الكتاب: Idea Creation

عدد الصفحات: ٥٨

القياس: ٢١,٥*١٤,٥

تاريخ الطبع: ٢٠١٢

إشكاليـــة الوعـــي والذاكرة العربية

على ضوء الصراع العربي الإسرائيلي

الطبعة الأولى

[١٤٣٢ هـ. - ٢٠١٢ م.]



العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٥٤٤٦٢٢ - ٠١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقدمة

تاريخيًا، وعسكريًا، وسياسـيًا، يمكن القول: إن الصراع العربي الإسرائيلـي ابتدأ في يوم معلوم، هو يوم الخامس عشر من أيار، سـنة ١٩٤٨، يـوم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، ودخول سـبع جيوش عربية أرض فلسـطين، باسـم جامعـة الدول العربية، وتحت شـعار حماية فلسطين من التقسيم!

غـير أن هـؤلاء الذيـن باتـوا يُعرفـون منـذ قيـام دولـة لهـم، بـ«الإسرائيليـين»، فهـم ليس لهـم «عنوان» أو «اسـم» واحد. هم «الصهاينة» وهم «اليهود» من خلال مشروع هرتسل، سنة ١٨٩٧؛ وهم «الشـعب اليهودي» و«اليهود» الذين وعدتهم بريطانيا باسم وزير خارجيتها بلفور، سـنة ١٩١٧، بـ «تأسيس وطن قومي» لهم في فلسـطين؛ وهم «شـعب الله المختـار» من خـلال العنصرية التي تلازمهم منـذ تاريخهم البعيد، وتنبعث حتـى في أيامنا هذه مطالبة العرب بضرورة الاعتراف بدولتهم كـ «دولة يهودية»، لا مكان فيها ولا مواطنية إلا لليهود!

مـع هـذا، فالقـول بـأن الإسرائيلـي أو الصـهيوني أو اليهودي مترادفـات لمعنى واحد، ليسـ دقيقًا؛ فكثيرون مـن الذين يحملون الجنسـية الإسرائيلية هم عرب؛ وكثيرون من الأوروبيين المسـيحيين

المستعمرين في القرن التاسع عشر كانوا أشد صهيونية من اليهود الصهاينة اللاحقين؛ وكثيرون من اليهود –بحكم الانتماء الديني – هم علمانيون؛ كما أن بعضًا من الإسرائيليين اليهود لا يؤمن بالعنصرية؛ غير أن هذا كله لا ينفي أن الحكام القابضين على زمام دولة إسرائيل من عهد بن غوريون حتى عهد نتانياهو، هم من الصهاينة العنصريين الهرتسليين الذين لا يرون في فلسطين إلا وطنًا لهم وحدهم. أما مصير الفلسطينيين – وفقًا لمخططاتهم – فهو الرحيل أو الترحيل. وأما فلسطين نفسها، فليست سوى نقطة الارتكاز للهيمنة الصهيونية/الإسرائيلية على أرض العرب، ونفط العرب، ومستقبل العرب.

أما العرب، فلا يوجد لهم اسم غير «العرب»، فهم موحدون «اسمًا»، غير أن عوامل الفرقة فيما بينهم تطغى على عوامل الوحدة. وليس من شك في أن المسيرة التي تدعى بمسيرة السلام، ما هي في حقيقتها سوى مسيرة الخنوع والاستسلام للعدو؛ أما العولمة، وهي التسمية الحديثة للهيمنة الاميركية، بديلاً عما عُرف قبل الحرب العالمية الأولى بالاستعمار، وما بعدها بالانتداب، وما بعد الحرب العالمية الثانية بالإمبريالية، فقد أضافت الكثير إلى أسباب الفرقة. والحق يُقال: إن «العولمة» كلمة حضارية لفظًا ومعنى، لكن تحت مظلتها تُنتهك القوانين الدولية، وتُرتكب أسوأ الجرائم ضد الإنسانية وضد الشعوب التي ترفض القبول بـ«عولمة» تفرض عليها فرضًا. وليست العولمة موضوعنا، ولكن نتائجها وتداعياتها التي تؤدي إلى المزيد من التشرذم العربي بالنسبة إلى الموقف من إسرائيل، وهي التي تؤدي بنا إلى طرح السؤال:

إسرائيل هذه: أدولة عدوّة أم صديقة؟

١ ـ ماهية الصراع العربي ـ الإسرائيلي وجوهر الإشكالية

إسرائيل مستمرة منذ قيامها في تطبيق مخططها الصهيوني العدواني القائم ليس على احتلال فلسطين فقط، بل على شطب الشعب الفلسطيني من الوجود، إما بالقذف به إلى الدول العربية المجاورة، حيث يتحول من شعب إلى سكان مخيمات ولاجئين أبد الدهر، أو يرضى صاغرًا بالتوطين في أي مكان خارج فلسطين. فالشعب الفلسطيني كما تراه الصهيونية ليس مجرد شعب لا يستحق الوجود، بل هو شعب–أصلاً–غير موجود. وما محاولات شطبها للفلسطيني إلا تمهيدًا لفرض هيمنتها على الأمة العربية، حاضرًا ومستقبلاً.

كثيرون من العرب يعتبرون أعمال إسرائيل العنصرية والعدوانية ضد فلسطين ودول الجوار طعنة في قلب الأمة، ويؤمنون بأن من واجبهم الدفاع عن فلسطين، كما عن لبنان أو العراق أو أي بلد عربي تُنتهك حقوقه وسيادته، وتُهان حضارته. غير أن هناك عربًا آخرين باتوا يعتبرون أن كل مقاومة للعدو المحتل ما هي إلا عقبة في طريق السلام! فهؤلاء، عن أي سلام يتحدثون؟

إن التناقضات في الموقف من العدو وفي فهم طبيعة الصراع العربي–الإسرائيلي هي جوهر الإشكالية الأساسية، لكن معالجتها ليست بالتوقف عندها مع مبدإ المساواة بين الجميع في طرح ما لديهم، كما نشاهد ونسمع في الحوارات الساخنة عبر شاشات الفضائيات العربية، بل بالسعي المتواصل لإظهار الصواب من الخطأ أو الخطيئة، وذلك بتعميق الوعي العربي على الحقائق، وعلى طبيعة الصراع، وعلى النهج المقاوم الذي خاضته أمم الأرض وشعوبها في حالات مماثلة عبر التاريخ.

مصادرنا الرئيسية في هذه الورقة سير الرجال، والحروب، والأحداث التي فجرت وعي الأمة وساهمت في صنع ذاكرتها، كما ساهمت في بناء الإنسان العربي المقاوم، من أيام الرئيس جمال عبد الناصر إلى أيام السيد حسن نصر الله.

سوف نتوقف عند المحطات الرئيسية والحروب التي انتقل فيها الصراع العربي –الإسرائيلي من مرحلة إلى أخرى، ونبتدئ بالثورة الأولى ضد الحركة الصهيونية وحاميها الانتداب البريطاني، وذلك من منطلق الأمانة التاريخية، كما من المنطلق العلمي، لتفهم طبيعة الصراع.

٢ ـ الثورة الأولى ضد الصهيونية والانتداب

لم يتكون الوعي العربي على المخاطر الصهيونية مع حرب النكبة، فالانطلاقة الفكرية في تكوينه تعود إلى الصحف التي انتشرت في أعقاب صدور الدستور العثماني (١٩٠٨)، حين أخذ الكثير منها ينشر المقالات عن الحركة الصهيونية ومخاطرها وأطماعها في فلسطين ونمو نفوذها في الآستانة، مع متابعة صفقات بيع الأراضي، وأقوال الزعماء الصهاينة.

توالت الثورات الشعبية في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، غير أن الوعي على نهج المقاومة المسلحة في مجابهة الخطر الصهيوني والاستعمار البريطاني معاً، لم يتفجر إلا يوم استشهد الشيخ عز الدين القسام، في العشرين من تشرين الثاني، سنة ١٩٣٥، وهو يتصدى لبريطانيا العظمى بطائراتها ودباباتها، مع مجموعة من إخوانه المجاهدين بمسدساتهم وبواريدهم. والواقع أنه ما من قائد

في فلسطين لاقى من الإجماع ما لاقاه القسّام، فكلماته منقوشة في القلوب والعقول: «هذا جهاد... نصرٌ أو استشهاد». إن صفة التلازم المطلق بين العالم والمجاهد لم تفارق شيخ المجاهدين، فهو عالم بأصول الدين الحنيفَ، ومجاهدَ مؤمن صادق سرعان ما ترتبط سيرته في وجدان المستمعين إليه أو الباحثين عنه، بسيرة الصحابة الأوائل.

قبل استشهاده كانت الأساليب التي اتبعتها القيادات والأحزاب السياسية للحدّ من مشاكل الهجرة المتفاقمة، وبيع الاراضي، واستئثار الوكالة اليهودية بمقدرات البلاد، لا تتجاوز سياسة التظاهر أو سياسة اللاتعاون، وأما بعد استشهاده مجندلاً على أحراش يعبد، وليس معه سوى مصحف شريف، ومسدس، وأربعة عشر جنيهًا، فمعركة يعبد التي دامت ساعتين، لم تعد مجرد معركة، بل أصبحت مقدمة الثورات المسلحة على أرض فلسطين، كما أضحى الجهاد أو النضال المسلح هو الطريق لتحرير البلاد، وكان رجال القسام هم الذين فجروا الثورة الكبرى (١٩٣٦- ١٩٣٩)، غير أن أحداث النكبة وتداعياتها جاءت لتطغى طغيانًا كليًا على مرحلة النهج المقاوم.

٣- حرب النكبة: نكبة مَن؟

قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا بلسان وزير خارجيتها إيدن هي الساعية إلى تأسيس جامعة للدول العربية، لتكون تلك الجامعة صاحبة القرار بشأن فلسطين، لا شعبها ولا زعيمها المفتي الحاج أمين الحسيني ولا مجاهديها كالقساميين. ولم يتوقف العقل العربي متسائلاً أمام سر اندفاع بريطانيا المفاجئ، وهي التي ما فتئت تحارب أي نوع من أنواع الوحدة العربية، وإلى الحد الذي كان مبدأ «فرق تسد» عنوانًا لسياستها.

هللت الشعوب العربية لولادة الجامعة، تصورًا منها بأنها حقًا «جامعة»، متجاهلة أنها ولدت في زمن الخضوع العربي للاستعمار البريطاني. لكنه ما أن صدر قرار التقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، واندلعت ثورة شعبية عارمة في أنحاء فلسطين، وتطوع للمشاركة فيها المئات من شباب العرب، حتى توالت التصريحات الحماسية من الزعماء العرب، وصدّقت الجماهير أن دولها وجامعتها التي تنادي بالحرب، دفاعًا عن فلسطين، تعني ما تقول، وما كان ليمر ببالها أن القرار الفعلي بالحرب لن يتخذ إلا في مطلع أيار فقط! وهذا مؤداه أن رؤساء الأركان لن يكون أمامهم سوى أسبوعين للاستعداد للحرب!

لو كان الوعي العربي الشعبي سنة ١٩٤٨، كما هو اليوم، لما صدّقت الجماهير تلك الوعود، ولأدركت أن إنشاء الجامعة ما كان إلاّ من أجل تمرير مشروع التقسيم؛ ولأدركت أيضًا وهي تقرأ تصريحات الحاج أمين النارية في مانشيتات الصحف، أنها ليست أكثر من تصريحات، فزعيم فلسطين لم يعد صاحب القرار.

المعروف عن «النكبة» أنها نكبة الشعب الفلسطيني الذي أصبح القسم الأكبر منه مجموعات من لاجئين مشردين. والمعروف أيضًا أنها نكبة فلسطين بتقسيم أرضها – واقعيًا– بين أربع دول: إسرائيل والأردن ومصر وسورية. أما الحقيقة الأشد مرارة فهي أنها نكبة العرب بحكامهم الذين رضخوا للتقسيم، لكنهم لم يعلنوا عن ذلك خوفًا من شعوبهم.

وكانت هذه النكبة أيضًا نكبة القدس قبل غيرها، فقد كان مخططًا لمدينة القدس عبر قرار التقسيم أن تصبح دولية لمرحلة محددة، غير

أن «القدس الغربية» سقطت من اليوم الأول، فاستمر المجاهدون والمتطوعون من أبناء فلسطين ومن مصر والأردن يدافعون بشجاعة لحماية القدس التاريخية داخل السور، طوال ثلاثة أيام، حتى وصل أخيراً الجيش العربي الأردني. وكان ممكنًا ألّا تسقط القدس الغربية فيما لو أحاطت بالقدس فرق عربية من اليوم الأول.

لم يدرك العقلاء العرب، أو من يُشار إليهم بـ «النخبة السياسية»، إلا بعد فوات الأوان، أن مظاهر العظمة التي أحاطت باجتماعات الملوك والرؤساء في أنشاص، ومظاهر السرية التي رافقت قرارات الجامعة العربية في بلودان أو في عاليه، لم تكن كلها إلا تمويهًا لغياب القرار السياسي الاستراتيجي العربي الحر، وغياب القرار العسكري العربي الموحد والمسؤول.

أما الوعي الشعبي فلا شك أنه كان في منتصف القرن العشرين مقصرًا في إدراك أبعاد الصهيونية، وكان أكثر تقصيرًا في إدراك سياسة حكامه. وهم الحكام الذين ما أن وصلوا إلى الهدنة الثانية (الدائمة واقعيًا)، حتى تفرغوا للحكم البوليسي والقمعي، فما من صوت يُسمح له بأن ينتقد الملوك والرؤساء!

أما الذاكرة العربية التي عايشت النكبة، فقد لازمتها مشاهد البؤس والعذاب، وحكايات الوطن الضائع على لسان الجدات والأمهات، وكأنّ لا نهاية لهذه النكبة! أبناؤها كلهم لاجئون! حتى الذين بقوا في ديارهم، فهم غرباء أو لاجئون! غير أن هذه الذاكرة المزدحمة بالذكريات الأليمة تناست ما يبعث في النفس العزة لا اليأس، تناست بطولة معارك النكبة وشهداءها، فهي الحرب التي وحدت جنود العرب ومتطوعي العرب، وهي الحرب التي احتضنت أفواجًا من

المسلمين المؤمنين الذين جاؤوا من ديارهم البعيدة ليقاتلوا على أرض الإسراء والمعراج، جاؤوا من يوغسلافيا ومن الهند ومن إيران ومن البلقان، ولا ذنب لكل هؤلاء المقاتلين العرب والمسلمين إلا أنهم قاتلوا في عهد قيادات سياسية أمرت جيوشها-أخيراً - بالتوجه نحو فلسطين، بينما كانت تخطط للهدنة!

٤ ـ العدوان الثلاثي على مصر: ما بين العقل والوجدان

حفلت السنوات الفاصلة ما بين النكبة والعدوان الثلاثي بتطور نوعي في مفهوم الصراع العربي - الإسرائيلي، كانت نواته ثورة مصر في ١٩٥٢/٧/٢٣، بقيادة الضباط الأحرار، فانتقلت البلاد من عهد الملكية والأسلحة الفاسدة إلى عهد الثورة على الظلم والفساد والتبعية للنفوذ الأجنبي. وكانت هذه الثورة هي الرد الأول على قوى الاستعمار وإقامتها دولة إسرائيل في قلب العالم العربي. ولما قامت في الجزائر ثورة ضد الاستعمار الفرنسي (١٩٥٤)، ضاعف قيامها من مشاعر العنفوان لدى الجماهير العربية، وأضحت ثورة الجزائر في وجدان اللاجئ الفلسطيني هي الحُلم والمَثَل الأعلى لثورة فلسطينية، لا بد قادمة.

حفلت سنة ١٩٥٥ بنشاط الأحزاب والقوى العربية ضد مشاريع الأحلاف الاستعمارية في الوطن العربي، وضد مشاريع التوطين. وتطور العمل الفدائي الذي انطلق من قطاع غزة إلى قلب إسرائيل، من نشاط استطلاعي لأفراد إلى أعمال مجموعات فدائية منظمة تهاجم دوريات العدو، وثكناته، ومستعمراته. والأهم من ذلك، أن تلك العمليات الفدائية الأولى كسرت حاجز الرهبة من العدو، كما كسرت صفقات الأسلحة التي قامت بها مصر مع عدد من الدول الاشتراكية احتكار الاستعمار الغربي للسلاح العربي.

اتضـحت معالم الثورة المصرية ليلة السـادس والعشرين من تموز/ يوليو سـنة ١٩٥٦، يوم أعلن الرئيس جمال عبـد الناصر تأميم قناة السـويس في خطابه الشـهير الذي نقـل الأمة العربيـة من حال إلى حال، فشعرت لأول مرة بأن قول «لا» للمستعمرين ممكن.

راجعت الدول الاستعمارية مخططاتها بعد تأميم القناة، وتلاقت مصالح كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بشن العدوان الثلاثي على مصـر. وفي ١٩٥٦/١٠/٢٩ بـدأت إسرائيل بالعدوان على سـيناء لخلـق الذريعـة للتدخل الفرنسـي والبريطاني، وفي يـوم الجمعة في الثـاني من تشرين الثـاني، وبينما كان عبد الناصـر يخطب في جامع الأزهر الشريف داعيًا إلى الصـمود والقتال، كان الجيش الإسرائيلي يدخل قطاع غزة.

تمكنت مصر من أن تحشـد قواها داخل المثلث الحيوي بورسـعيد – القاهـرة – السـويس، قبل أن يبتدئ الهجـوم الجوي المكثف من الطائرات الفرنسـية والبريطانية، وسرعان ما تحوّل القتال العسكري المحدود إلى حرب تحرير شعبية، قوامها القوات المسلحة ومنظمات المقاومة الشـعبية المصرية، ولاقت بورسعيد الحصة الكبرى في شرف التصدي للعدوان من بيت إلى بيت.

ما كان ممكنًا للعدوان أن يسـتمر أكـثر من أيام محدودة، فالاتحاد السـوفياتي، الدولـة الصـديقة لمصر، أصـدر إنذاره الشـهير بوقف العدوان، حتى الولايات المتحدة التي لم تكن يومًا دولة صديقة، فهي طالبت كذلك بوقف العدوان، لكن لأسباب مختلفة، إذ إنها غضبت لتفرد الدول الثلاث بالقرار!

تجربة العدوان الثلاثي مدرسة بحدّ ذاتها في فهم الصراع العربي- الإسرائيلي، وفي إدراك مدى الترابط بين وجود إسرائيل والاستعمار الغربي. وتحمل الذاكرة العربية لهذه التجربة ذلك الحماس المنقطع النظير في العواصم العربية، ونشيد «الله أكبر» على كل لسان، وصمود بورسعيد الذي تحول إلى أسطورة، وسيادة النهج القومي الذي بات مطمئنًا إلى أن أقوى الدول العربية أصبحت قادرة على قهر إسرائيل.

غير أن تجربة العدوان الثلاثي لم تصل بالإنسان العربي إلى تحقيق التوازن بين عقله ووجدانه، فالتحليل العقلاني قلّ أن وُجِد، وعوضًا عنه كانت المشاعر الحماسية والقومية وحدها سيدة الآراء والأحكام. كان على الأمة أن تنتظر خمسين سنة أخرى حتى تحقق التوازن ما بين العقل والوجدان.

٥- حرب النكسة: هزيمة وموعد مع النصر

ما بين العدوان الثلاثي وحرب النكسة عاش الوطن العربي انقلابات عسكرية وثورات في اليمن، وفي عُمان، وفي العراق.. غير أن الحدث الاستراتيجي الذي نقل الصراع العربي- الإسرائيلي من صعيد إلى صعيد، هو قيام الوحدة بين مصر وسورية في ١٩٥٨/٢/٢٢، وهي الدولة التي أصبحت تُعرف بالكماشة بالنسبة إلى إسرائيل، والتي جعلت العرب يوقنون بأن الوحدة هي الطريق إلى فلسطين، وأن الاستراتيجيا العسكرية هي الطريق.

لكن الحلم بالعودة لم يطل كثيراً، إذ سرعان ما انتهت الوحدة إلى انفصال في خريف سنة ١٩٦١، ما أدى إلى التحول نحو الدرب

الآخر، وهو أن تكون فلسطين هي الطريق إلى الوحدة. وهذا أدى بدوره إلى ولادة العديد من التنظيمات الفلسطينية نمو الفطر، حتى الأحزاب القومية أنشأت فروعًا «فلسطينية» التوجه والبرامج.

أما النهج العسكري فلم يزل بزوال الوحدة، بل تكرس بإنشاء «القيادة العربية الموحدة» في مؤتمر القمة العربي الأول (١٩٦٤)، كما تجلت روح التصدي للعدو بإنشاء «هيئة استغلال نهر الأردن وروافده» في المؤتمر نفسه، وكذلك بالعمل على إنشاء الكيان الفلسطيني، وقد أنشئ الكيان في ١٩٦٤/٥/٢٨ باسم منظمة التحرير الفلسطينية، والتي كان من إنجازاتها الأولى إنشاء جيش التحرير الفلسطيني، وقد سمحت كل من مصر وسورية والعراق بإنشاء ألوية فلسطينية على أراضيها.

انطلقت شرارة الحرب من تهديدات أُطلقتها إسرائيل وحشود عسكرية وضعتها على حدودها مع سورية، ومن إصرار مصر على حقها في استعادة سيادتها على مياهها الإقليمية حيث مضيق تيران على البحر الأحمر، فطالب عبد الناصر بإنهاء وضع قوات الطوارئ الدولية في شرم الشيخ، وابتدأ منذ ١٩٦٧/٥/٢٣ بمنع السفن الإسرائيلية من المرور. وما كان خوف العرب من الحرب، بل من المناورة، أي ألا تقوم الحرب فعلاً ويكتفي عبد الناصر بالمناورة. لذلك تمنى الكثيرون أن تكون إسرائيل هي البادئة بالحرب. وما كان المواطن العربي ليفكر كثيراً بالنتائج، إذ كان يشعر بإيمان عميق بأن النصر لمصر، لصواريخ «الظافر» و«القاهر». الوجدان في حرب النكسة كان أيضًا وحده سيد الموقف.

ابتدأت الحرب، صباح الاثنين في ١٩٦٧/٦/٥، وتمكنت إسرائيل في الساعات الأولى من ضرب عشرات الطائرات المصرية الحربية الجاثمة على أرضها. وخلال ستة أيام فقط تمكنت من تدمير ٨٠٪ من القوات المسلحة المصرية، واحتلال ما تبقى من فلسطين، وسيناء، والجولان!

كانت أيام النكسة من أقسى الأيام التي جابهتها الأمة، وقد عمَّت الجماهير إمارات الحزن المرير واليأس والذهول.

ما الفارق الأساسي بين الحربين: النكبة والنكسة؟

كان الحكّام في حرب النكبة منقادين إلى شعوبهم، ولو ظاهريًا، وأما في حرب النكسة فكانت الجماهير هي المنقادة إلى حكامها.

ولو قمنا باستفتاء الذاكرة العربية لكان يوم التاسع من حزيران أبرز أيام تلك الحرب، وهو يوم تنحّى عبد الناصر متحملاً المسؤولية كاملة، فامتلأت مدن العرب بالجماهير تطالبه بالعدول عن الاستقالة. وفي مؤتمر القمة بالخرطوم كان تأييد الشعب السوداني في الشوارع لموكب عبد الناصر حدثًا لا تنساه السودان. لم يُعرف عبر التاريخ أن القائد المهزوم ينال من التأييد فوق ما يناله المنتصر، لكن هذا حصل في أعقاب حرب حزيران، وكان نابعًا من وعي العرب ووجدانهم بأن عبد الناصر ليس وحده من يتحمل المسؤولية، وأنه إن تنحى، فالمستقبل أشد ظلمًا وظلامًا.

ارتبطت النكسة بالنازحين من فلسطين وبالمهجرين في مصر وسورية، وسرعان ما تقبل العرب شعار «إزالة آثار العدوان» بديلاً عن شعار «تحرير فلسطين»، وسرعان ما نسي العرب أن حرب الأيام الستة في فلسطين كانت حرب اليومين فقط، ففي صباح الأربعاء،

الســابع من حزيران، كانت مدينة القدس أول عاصــمة عربية تحتلها إسرائيل كاملة، وكانت فلسطين أول بلد عربي تحتله إسرائيل كاملاً.

حصل ذلك لأن أورشليم دومًا على رأس الأولويات الصهيونية، أمــا القدس فما احتلــت يوماً رأس الأولويات العربيــة، وإن تكن وجدانيًا لها الأناشيد والقصائد والمؤتمرات والقرارات. ولو استعدنا في ذاكرتنا ما قيل وما كُتب عن هزيمة ١٩٦٧ ، لاكتشفنا أن القدس نالت من الاهتمام أقل من أي موضــوع آخر، وكأن سقوط القدس كان قضاء وقدرا.

الفارق بين الوعي العربي والوعي الصهيوني يومذاك، هو أن القدس سقطت وعيون العرب شاخصة بعيدًا نحو مضايق إيران والجولان، بينما المقدسات لا يفصل بينها وبين إسرائيل سوى حائط! أما القدس الكبرى، أو أورشــليم، فما قامت حرب في تاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي إلا وكان للإسرائيليين فيها مكاسب جديدة، إما المزيد من الأرض، وإما المزيد من التهويد، وإما المزيد من التأييد الدولي.

لــو اقتصرت الذاكــرة الجماعية على الحدث إبــان وقوعه، لقلنا: إن مشــاعر الإحباط والشـعور بالمهانة ومرارة الهزيمة كادت تحطم الإنســان العربــي، وهو لا يــرى أمامه غير حائط مســدود، ولقلنا: إن الأدب الذي ولد في أعقاب النكســة، وعلى امتداد الســنوات، كان من أروع ما نشر بالعربية، قصــيدة، ورواية، ومسرحية، وقصة، وحكايات شـعبية، غـير أن الذاكرة الجماعيــة تتعدى زمن الحدث، وتطال تداعيات الحدث، والحُكم العقلاني على الأحداث أساسًا لا ينضــج إلا مع النتائج والنهايات، لذلك عندما نسأل الذاكرة العربية عما جرى بعد الهزيمة، نكتشــف أن حرب النكســة ما كانت نهاية

عهد الاستراتجيا العسكرية، ونستعيد ما قاله عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم: «إننا لن نكون أول من يهزم في معركة، ولكن المهم هو كيف نحوّل الهزيمة إلى درس!»

كان الدرس هو حرب الاستنزاف التي ابتدأت بعد شهرين فقط من النكسة، واستمرت ثلاث سنوات حتى تموز ١٩٧٩، تمكنت مصر خلالها من إنشاء خط صواريخ سام. وتميزت هذه الحرب بالمشاركة العربية، فكان هناك لواء مشاة جزائري، وكتائب مشاة من السودان والكويت، وكانت قوات عين جالوت الفلسطينية المتواجدة في مصر، كما تم التنسيق بين الجبهتين المصرية والسورية. وليس من شك في أن حرب الاستنزاف هي أهم الحروب العربية – الإسرائيلية من حيث الإحباط النفسي الذي ساد جنود العدو، ومن حيث الخسائر البشرية والمادية في صفوف جيشه، بتواصل، وهذا فضلاً عن إعادة بناء الجيش المصري تدريبًا وقوة واستعدادًا للمعركة القادمة.

تزامن مع حرب الاستنزاف قيام ثورة في السودان في ١٩٦٩/٥/٢٥، وثورة في ليبيا في ١٩٦٩/٩/١، واجتمعت في ليبيا القيادات السياسية والعسكرية لكل من مصر والأردن والعراق والسودان وليبيا ومنظمة التحرير لوضع التخطيط الاستراتيجي الموحد للجبهتين الشرقية والغربية ضد إسرائيل.

كذلك نتج عن حرب النكسة قيام العمل الفدائي الفلسطيني، بدءًا من الأغوار في الأردن، وقد وُصفت هذه المرحلة بالرومانسية، حتى باتت الكوفية الفلسطينية رمزًا للثورة في العالم الغربي قبل الشرقي.

كان يفترض أن تتم حرب العبور سنة ١٩٧٠، أو سنة ١٩٧١، وكانت مصر على وشك أن تكمل استعدادها للحرب يوم فاجأ عبد الناصر الأمة بقبوله مبادرة روجرز ووقفه حرب الاستنزاف، ثم ثبت فيما بعد أنه كان مستمرًا في إعداد الخطة لحرب العبور، بعيدًا عن الأضواء.

تسارعت الأحداث، وبديلاً عن المواجهة مع إسرائيل، كانت المواجهة بين الجيش الأردني والتنظيمات الفلسطينية في عمّان، وهي التي انتهت بخروج المقاومة الفلسطينية من الأردن، ورحيل عبد الناصر عن الدنيا منتقلاً إلى رحمة ربه في ١٩٧٠/٩/٢٨. وودعته الجماهير بجنازة لم يسبق أن شاهدت القاهرة أو أية عاصمة عربية أخرى مثيلاً لها لأي ملك أو زعيم، وقد كان البكاء خوفًا على المصير، كما كان حزنًا على الراحل الكبير.

طرح رحيل عبد الناصر السؤال: هل تكون حرب النكسة هي النهاية لعهد الحروب العربية–الإسرائيلية؟ وهل تكون أهمية حرب الاستنزاف مجرد إثبات القدرة على مجابهة إسرائيل؟ وماذا عن التحرير أو إزالة آثار العدوان؟

لم تكن هناك تصورات واضحة لمستقبل الصراع العربي – الإسرائيلي، وما كان الوعي العربي في أوائل السبعينيات قد استفاد كثيرًا من عبر الماضي، وكانت الخلافات العقائدية الحزبية لها الأولوية؛ ولو كانت النخبة السياسية العربية حقًّا واعية، لأدركت أن تلك السنوات الأولى في عهد السادات هي الفاصلة ما بين الاستراتيجيتين العسكرية والسلمية.

٦ ـ من النهج العسكري إلى النهج «السلمي»

لم يدرك العقل العربي إلّا بعد فوات الأوان أنّ مصر سوف تتحول في عقد السبعينيات من الدولة العربية الكبرى في مواجهة إسرائيل إلى أول دولة توقع الصلح معها، وأن اللاءات الثلاث الشهيرة التي اتخذت في مؤتمر الخرطوم، وهي: «لا صلح، ولا تعايش، ولا تفاوض مع إسرائيل»، سوف تكون مصر السادات أول من ينتهكها. وكأن حرب العبور، الحرب شبه المعجزة، والتي ترتبط بأعماق كل إنسان مصري وعربي بكل معاني العزة والكرامة والقدرة على قهر العدو، كأنها لم تكن إلّا دفعة أولى ثمنًا للسلام الزائف.

وكانت حرب العبور في شهر رمضان المبارك (٦ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٣) حقًّا من أهم الحروب، غير أن الأيام التي سُمح فيها للجيش المصري بالقتال لم تتجاوز الأربعة، وهو الجيش الذي كان ينتظر ساعة الحسم منذ حرب الاستنزاف، وقد أثبت في هذه الحرب قدرته على عبور القناة في ساعات، وما كان أكثر أهمية من العبور وفقًا للتقديرات العسكرية، هو اقتحام الجنود المصريين خط بارليف الذي كان أشد مناعة من خط ماجينو في الحرب العالمية الثانية؛ وكان الجنود المصريون كلهم –مسلمين وأقباطًا– يهتفون: الله أكبر! الله أكبر! وتمّ الاقتحام، وارتفع العلم المصري ثانية، شرق القناة، وكانت أمنية المصريين والعرب أن يستمرَّ القتال حتى تتحرر سيناء، وكان هذا ممكنًا! غير أن الرئيس السادات اكتفى بالنصر المحدود! فصحراء سيناء لها رب يحميها! ولتكمل سورية حربها وحدها إن شاءت! ولتنتظر فلسطين حتى يوم القيامة!

وهكـذا، بعد تلك الأيـام الأربعة الخالدة في الوجـدان العربي، وبعـد نصر على الجبهتين الســورية والمصرية، أصـدر الرئيس المؤمن محمـد أنور الســادات أمره بالتحول من موقـف الهجوم إلى موقف الدفاع، هذا الأمر الذي نتج عنه ثغرة الدفرسـوار ووصـول الجنود الإسرائيليين إلى غرب القناة، الأمر الذي أدى في نهاية الحرب إلى أن يصبح المطلب الأساسي هو انسحاب الإسرائليين من غرب القناة لا من شرقها، أي من الدفرسوار لا من سيناء!

وكأن هـذه الحـرب ما كانـت إلّا تمهيدًا لمسـيرة السـلام القادم بالمفهـوم الأميركي/الإسرائيلي، وليس من أجـل إزالة آثار العدوان. ومـا زال المؤرخـون يبحثـون عـن بدايـة التحـول في السـادات، ويتسـاءلون: أكانت أوامره تلـك نتيجة؟ أم كانت سـببًا؟ وما كان هناك من جواب في تلك الأيام عن سـؤال كهذا لدى الوعي العربي الـذي أصـيب بارتباك لا حدود لـه في أثناء المفاوضـات المصرية — الإسرائيليـة، بدءًا من زيارة السـادات إلى القدس (١٩٧٧)، مرورًا باتفاقيتـي كامـب ديفيد (١٩٧٨)، وصـولاً إلى المعاهـدة المصرية- الإسرائيلية (١٩٧٩)؛ قبيل التوقيع على المعاهدة كان السـؤال على لسان النخب والطلائع العربية كما على لسان الجماهير: أحقًا سوف يقدم السادات على توقيع المعاهدة؟ من مظاهر تشتت الوعي كانت الرهانـات التي قام بها كثيرون، وهم واثقـون أنه يوم التوقيع على المعاهدة في البيت الأبيض، فالسـادات، حتى وهو محاط بالأميركي كارتر والإسرائيلي بيغن، فهو سـوف يفاجئ الجميـع بأنه لن يُوقع! هؤلاء خسروا الرهان.

كانـت مصر السـادات تسـهب في أهميـة القدس بالنسـبة إلى السادات، وتنشر رسـالة الرئيس المؤمن إلى «عزيزه» كارتر بشأنها،

وإمعانًا في جرّ العرب نحو خط السلام/الاستسلامي رفض الرئيس المصري المطالب العربية بإلغاء المعاهدة، فقررت الدول العربية بالمقابل مقاطعة مصر ونقل مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى تونس.

حققت إسرائيل هدفها الأول بشق الصف العربي، مبتدئة بمصر، كبرى الدول العربية تاريخيًا وسياسيًا وقوميًا. وحققت هدفها الثاني بفرض الحل الإسرائيلي للقضية الفلسطينية، وهو الحل الذي تراوح من شبه حكم ذاتي يومذاك، إلى شبه سلطة حاليًا، وإلى شبه دويلة مستقبلاً. وحققت هدفها الثالث بأن تكون هي ومصر وحدهما الحَكَم في قضية اللاجئين الفلسطينيين. وحققت هدفها الرابع، بفرض طريق السلام الذي ترتئيه مع العرب.

شاعت أجواء سياسية مصدرها واشنطن تدعو إلى إنهاء الصراع العربي – الإسرائيلي، غير أن الواقع كان ينبئ بحروب جديدة قادمة، فإسرائيل التي نجحت بإبعاد مصر عن الميدان، باتت أكثر شراسة في مجابهة من يرفض طرحها للحلول من العرب.

لو سئل الوعي العربي في مطلع سنة ١٩٨٢: ما هي التوقعات لمستقبل الصراع العربي– الإسرائيلي؟ لكانت هناك عدة إجابات عفوية، لكن أيًّا منها تعجز عن طرح التصورات لما جرى خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان. والوعي العربي الذي نتحدث عنه ليس الوعي الجماهيري أو الشعبي، فحسب، نحن نعني أيضًا وعي القيادات المسؤولة في التنظيمات والأحزاب والمؤسسات السياسية على اختلافها؛ فالدراسات التي يفترض فيها أن تحذر مما سيكون عليه صيف ١٩٨٢، أو أن تتساءل على الأقل عن سمات المرحلة القادمة، ندر أن وُجدت.

٧- عام ١٩٨٢: آخر حروب القرن العشرين وانبثاق فجر المقاومة

ابتـدأ الاجتيـاح الإسرائيلي للبنـان تحت عنوان «عملية سـلامة الجليل»، في السـادس من حزيران، سـنة ١٩٨٢، وما كان ليبتدئ إلّا بعـد جـلاء الجيش الإسرائيلي نهائيًا عن آخر بقعة في سـيناء، في نيسـان ١٩٨٢، فتوهمـت إسرائيل أنها قد انتهـت من تحييد مصر، ووفقًا لمخططاتها، جاء دور القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، والهيمنة على لبنان.

كان لإسرائيـل تجربـة سـابقة في اجتيـاح لبنـان، قامـت بها في ١٤/٣/١٩٧٨، وأطلقـت عليها عملية الليطـاني، وأعلنت أنها رد علـى العملية الفدائية التي قامت بهـا دلال المغربي ومجموعتها على مشارف تل أبيب. وعلى الرغم من ضراوة هذا الاجتياح العسكري، ومـن اسـتعمال إسرائيل لكل قواهـا الجوية والبحريـة والبرية، فهي لم تصـل إلى الليطـاني، واضـطرت إلى الانسـحاب بعـد ثمانية أيام صـمدت خلالها مدينة صـور علـى الرغم من الضرب المتواصـل، كما صـمد المقاومون اللبنانيون والفدائيون الفلسـطينيون. وكانت الولايات المتحدة قد تدخلت سريعًا لإنشـاء قوة للأمم المتحدة تسيطر على الوضع والمنطقة، إذ كانت لا تريد حروبًا في تلك المرحلة خوفًا من تعطيل الجهود السرية والسـارية في حينه بين السادات وإسرائيل من أجل عقد اتفاقيات السلام.

حاصـر الجيشـ الإسرائيلي مدينة بيروت، فتصـدى له المقاومون اللبنانيون من مختلف الأحزاب، والمقاتلون الفلسـطينيون من جيش التحريـر والجبهات المتعـددة، وكان لأهل المدينة الـدور الكبير في الصـمود، كما كان كذلك دور لأحزاب وعناصر مستقلة، ولقوى

إسلامية، غير أن هذه التجربة النضالية طغت عليها الخسائر الهائلة ماديًا وبشريًا، فهذا الاجتياح المدمر جوًا وبحرًا وبرًا، وبالأسلحة المحرمة دوليًا، كانت نتائجه عشرين ألف شهيد، ومائة ألف مهجر، ودمارًا اقتصاديًا هائلاً على الساحة اللبنانية، وانقسامًا سياسيًا حادًا بين الفئات والأحزاب. صحيح أن هذا الانقسام تعود بداياته إلى الحروب الأهلية التي اندلعت منذ أواسط السبعينيات، ولا داعي للعودة إلى الجذور البعيدة، لكنه اتخذ هذه المرة طابعًا خطيرًا، فالانقسام بات محوره الأساسي والمعلن لا الخفي فقط، هو الموقف من إسرائيل.

إسرائيل لم تعد مجرد دولة تكتفي بالاعتداءات المتكررة على القرى الجنوبية، والمخيمات الفلسطينية، بينما تكتفي دولة لبنان بالشكوى إلى مجلس الأمن، متوارية وراء استحالة تصديها لإسرائيل، كونها من أصغر الدول العربية مساحة، وكونها لم تشارك في الصراع العربي -الإسرائيلي سوى في حرب ١٩٤٨، الحرب التي لم يكن مخططا لها أن تكون حربًا، بل مسرحية يسدل الستار من بعدها على تقسيم فلسطين. إسرائيل، هذه المرة، احتلت أراضيَ شاسعة من لبنان تبلغ نحو ثلث مساحته. وتحت سمعها وبصرها، وبإشرافها، ارتُكبت مجزرة صبرا وشاتيلا، من أبشع مجازر القرن العشرين همجية. وإسرائيل هذه المرة كشرت عن أنيابها في عدائها للبنان، وهي التي كانت حجتها وجود المقاتلين الفلسطينيين، غير أنها حتى بعد أن خرجوا من لبنان بحرًا وبرًا، فقد واصلت حربها واعتداءاتها، وفي حساباتها أن القوات اللبنانية التي تمكنت من إيصالها إلى سدة رئاسة الجمهورية، سوف تكون قادرة على أن تجعل لها من لبنان بلدًا ضعيفًا أبدًا، ومطية لأطماعها. في ظل هذه الأجواء تمكنت إسرائيل

من تتويج مكاسبها بتوقيع اتفاقية ١٧ أيار سنة ١٩٨٣، مع لبنان، وهي الاتفاقية التي تتفوق على اتفاقيات السلام المصرية – الإسرائيلية خنوعًا واستسلامًا.

خلال حرب الاجتياح المدمرة صحا الإنسان العربي على ما يجري، وكأنه يشاهد لأول مرة الهمجية الصهيونية/الإسرائيلية، غير أن البعض كانت له رؤية مختلفة، فها هي مصر تنعم بالسلام، وها هم المقاتلون الفلسطينيون يخرجون من لبنان، فهل تكون هذه آخر الحروب؟ ولم لا يرضى الفلسطينيون بالضفة والقطاع، ولم لا يكتفي لبنان باتفاقيته مع إسرائيل، أما آن لهذا العداء أن ينتهي؟

كانت حرب الاجتياح امتحانًا قاسيًا لوعي العرب، وصبر العرب، وإيمان العرب بقدسية الحقوق التي سلبتها إسرائيل منهم في فلسطين، والتي تسلبها منهم يوميًا، في أي مكان كانوا، كي لا يتطوروا نحو أمة قوية لها مكانتها بين الأمم. فالمكان في هذا «الشرق الأوسط»، كما تخطط القوى الاستعمارية المهيمنة له، هو للدولة التي أوجدتها هذه القوى يومًا، لإسرائيل، لا لأصحاب الديار، وأصحاب الرسالة، وأصحاب الحضارات الكبرى منذ فجر التاريخ، وأصحاب النفط في القرن العشرين. حتى الموغلون في دفاعهم عن السياسة الأميركية أصابتهم خيبة كبيرة من الانحياز الأميركي للاجتياح الإسرائيلي بلا حدود.

من المؤلم حقًا غياب العقل العربي بشكل كلي في أيام الاجتياح الإسرائيلي للبنان عما كان يجري في القدس المحتلة، حيث كانت تجري عمليات تهويد لا سابق لها، باعتراف الصحفيين الأجانب المؤيدين والداعمين لإسرائيل، وهذا كله بينما العيون شاخصة على

شاشــات التلفزيون تشــاهد يوميات الاجتياح المدمر، كما تشاهد المقاتلين الذين خرجوا.. وهم يرفعون شارة النصر!

لا تنســى الذاكــرة العربية حصــار بــيروت وتدميرها في أشــهر الصــيف الخانقة، أو تدمير الجنــوب، أو معتقل أنصــار، أو الفاكهة الإسرائيليــة التي غزت لبنان مع الجيش الإسرائيلي، وقد كان متوقعًا من لبنان أن يغرق في لجة الإحباط من الاحتلال الذي استــمر جاثمًا على أرضــه، غير أنه فاجأ الجميع بعكس التوقعات، فســنة ١٩٨٢ حملــت في طياتها مفاجأة كبرى في الصــراع العربي - الإسرائيلي، بعيدة كل البعد عن منحى السلام/الاستســلامي؛ ففي عام الاجتياح هذا ولــدت المقاومة اللبنانية، في البلد الذي كان يعتبر من أضــعف البلدان العربية عســكريًا، والذي ما كان ممكنًا التصــور بأنه ســوف يتحول في يوم من الأيام إلى معســكر المواجهة مع إسرائيل. فكيف؟ ومتى؟

ما أن انتهى خروج المقاتلين الفلســطينيين والســوريين من لبنان، ومــا أن احتلــت إسرائيل بــيروت الغربية، حتى جوبهــت بعمليات مقاومــة لم تكن تتوقعها، وقد قام بالعمليات الأولى شــباب من أكثر من حزب أو تنظيم لبناني، حتى أقر العدو بأن وجوده في بيروت ليس نزهة كما تصور، فأخذ يعلن في شوارع العاصمة بالميكروفونات أنه منسحب. وكان بين هؤلاء المقاومين مجموعات من المقاومة الإسلامية التي ابتدأت عملياتها في قلب بيروت وفي أكثر من منطقة في لبنان، وهي المجموعات التي تميزت عن سائر المجموعات المقاومة بأنها لم تتوقف منذ عام الاجتياح حتى يومنا هذا، كما تتميز بأنها كانت هي من أعلن ولادة فجر المقاومة، بعملية استشــهادية تعتبر من أضــخم العمليات في تاريخ الصراع، وقد حدثت بتاريخ ١٩٨٢/١١/١١،

ففي هذا اليوم شوهد مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في مدينة صور يدمر بفعل انفجار هائل لم يُعرف مصدره في البداية، لكنه عُلم فيما بعد، بعد خروج الجيش الإسرائيلي نهائيًّا من لبنان، بأن بطل العملية كان أحمد قصير، الاستشهادي المقاوم في حزب الله، فهو من قاد السيارة الممتلئة بالمتفجرات وقام بنسف المقر والقضاء على من فيه من ضباط وجنود.

بعد أقل من عام واحد، قام المجاهدون بنسف مقرّ القوات الأميركية ـ المارينز ومقر قوات المظليين الفرنسيين، بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٨٣، فما عاد ممكنًا لهذه القوات الأجنبية المتعددة الجنسيات أن تبقى بعد خسارتها المئات من ضباطها وجنودها، فتمَّ انسحابها النهائي من لبنان ما بين ٣١/٤/١٩٨٤ و ٣٠/٤/١٩٨٥.

وشهد عقد الثمانينيات من القرن الماضي عمليات استشهادية قامت بها عناصر من الحركة الوطنية اللبنانية تنتمي إلى أحزاب متعددة، حتى أن وسائل الإعلام كانت حريصة على «الواو» بين المقاومتين، إذ كان نعتها بالمقاومة الوطنية والإسلامية.

نتوقف عند عام ١٩٨٧ الذي شهد تصعيدًا في عمليات المقاومة من الجنوب ضد القوات الإسرائيلية في حزام الأمن الحدودي وضد مليشيا لحد العميلة التابعة لها، حتى لقّب صيفه بالصيف الحار، وكانت أهم الاشتباكات يوم اخترق المجاهدون أسوار مقرّ الحاكم العسكري في تل زغلة قرب حاصبيا، وقاموا بنسف أجزاء من المقر. أما في الخريف فقد تميزت العمليات بتخطيط دقيق، الأمر الذي أدى إلى أن يتضاعف عدد الجرحى من الجيش الإسرائيلي وجيش لحد على عدد الجرحى من المقاومة لأول مرة في تاريخ الصراع

العربي- الإسرائيلي. ولأول مرة أيضًا تمكن فدائي من الجبهة الشعبية ـ القيـادة العامة من الهبوط بطائرة شراعية ذات محرك واحد بالقرب من معسـكر إسرائيلي داخل إسرائيل، فكان القتلى والجرحى بنيرانه كلهم من الضباط والجنود.

كان أهل الضـفة الغربية وقطاع غزة أكثر العرب متابعة لما يجري في جنوب لبنان، خاصة وأن عام ١٩٨٧ كان عام الركود بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، دوليًا وعربيًا وحتى فلسطينيًا في أوساط منظمة التحرير في الخارج، غير أن الفلسطينيين على أرضهم اقتدوا بالمقاومة اللبنانية، وأدركوا بأن الدور بات دورهم، فهذا العام عندهم لم يكن عام ركود، إذ قامت خلاله عدة انتفاضـات متفرقة واضـطرابات، تُوجـت قبل نهاية العام بقيام «الانتفاضـة» كالمارد، في التاسـع من كانون الأول، يوم توديع الشـهداء الذين قتلهـم الإسرائيليون عمدًا على معبر إريتز في قطاع غزة.

نجحت الانتفاضة التي اشتهرت بـ «ثورة الحجارة» في أن تتحول إلى ثورة شـعبية عارمـة، فلم تكن من الثورات التـي تقودها طلائع بينما مهمة الشـعب المـؤازرة، إذ كان لكل بيـت ولكل فرد دوره؛ ونجحت بمشـاركة جميع القوى السياسـية الفاعلة في قيادتها، ومن بينها قوى إسلامية جديدة، منها «الجهاد الإسلامي» القائم على مبدإ الجهاد أولاً، أي الجهاد قبل الدولة الإسـلامية، ومنها حركة المقاومة الإسـلامية «حماس»، التي ظهرت لأول مرة. ورفعت الانتفاضـة شـعار «أبـو جهـاد» خليل الوزير: «لا صـوت يعلو فوق صـوت الانتفاضـة». ومن مقره في تونس كان أبو جهاد، القائد المسـؤول عن شـؤون الوطن المحتل، يتابع الانتفاضـة بتواصـل، حتى اغتاله الإسرائيليون في ١٩٨٨/٤/١٦ بعملية لم يسـبق لها مثيل، شاركت

فيها قطع بحريـة وجوية، بإشراف اللواء إيهود باراك، واللواء آمنون شاحاك رئيس الاستخبارات العسكرية. فاشتعل الشارع الفلسطيني حزنًا وحماسة، وغلب الوجدان على العقل، هذه المرة، كما حدث في كل التجارب المماثلة.

أما رسـالة الانتفاضـة، فالحق أنها وصـلت إلى مسـامع المجتمع الغربـي، فكتبها بلغاته كما تُقرأ بالعربيـة (Intifada)، غير أن الوعي العربـي لم يكن مـدركًا أن المجتمع الغربي نفسـه هو الذي سـوف يحتضن في التسعينيات مسيرة السلام الاستسلامية.

٨ – النهج السلمي: نحو سلام أم استسلام؟

يوم أصـدر المجلس الوطني الفلسـطيني وثيقة «إعلان استقلال فلسطين»، بتاريخ ١٥/١١/١٩٨٨، من الجزائر، اعتُبر هذا الإعلان الوثيقـة الأهم في تاريخ القضـية الفلسـطينية لما احتـواه من المبادئ القانونية والسياسية التي تسمح ببناء دولة مستقلة، فضلاً عن البلاغة التي احتواها، وكان الشاعر محمود درويش هو من قام بالصياغة.

كان الترحيب كبيرًا بوثيقة الاسـتقلال، فلسـطينيًا وعربيًا، لكنه ما كان خافيًا على أحد أن الاعتراف بقرار التقسـيم الذي يؤدي إلى إنشـاء دولة فلسطينية، معناه الاعتراف ضـمنًا بإسرائيل التي قامت بناء على القرار نفسه. غير أنه تم تجاهل هذه المشكلة ـ كما هي العادة ـ فالزمن كفيل بحلها، فها هي الانتفاضـة مستمرة، وها هو الجيش الإسرائيلـي قد زج بعشرة آلاف جندي لقمع الانتفاضـة ولم يتمكن مـن تحطيمها. ومرت الأعوام، وأثبتت الانتفاضـة باسـتمرارها أن أهدافها بإقامة الدولة المسـتقلة في الضـفة والقطاع ممكنة التحقيق!

وأثبت الوفـد الفلسـطيني إلى مؤتمر مدريد للسـلام (١٩٩١)، أن قضـية شعبه قضية حق! وابتدأت المفاوضـات من أجل السلام على مختلف الأصعدة، من غير أن يحسب العقل العربي حسابًا إلى أن مثل هذه المفاوضات العلنية، هي خير غطاء لمفاوضات سرية.

اشتهر مؤتمر القمة العربية في الخرطوم (١٩٦٧) باللاءات الثلاث: «لا صـلح، ولا تعايشـ، ولا تفاوض مع إسرائيـل»؛ وهي اللاءات التي تجاهلها الرئيس السـادات ونال بعد ذلك جائزة نوبل مع زميله بيغن! غير أنه كانت هناك في القمة العربية نفسـها لاء رابعة، تقول: «لا انفراد لأية دولة عربية بقبول أي حل لقضـية فلسـطين». وكان الذي تقدم بها هو أحمد الشـقيري، رئيس منظمة التحرير، وعندما أحجم مؤتمر الملوك والرؤساء العرب عن تبني هذه «اللاء»، انسحب الشـقيري والوفد الفلسـطيني احتجاجًا! حصل هذا والشقيري هو الرئيس المتهم بالبرجوازية! أما في عهد «فتح» صاحبة الشعار: «فتح ثـورة عالأعادي»، فكان رئيسـها ورئيس المنظمـة، يومذاك، ياسر عرفات، هو من أقدم على «الانفراد» بقبول حل لقضـية فلسـطين، وكان هو من وقع اتفاقية أوسـلو في ١٣/٩/١٩٩٣، الاتفاقية التي تشكل النقيض لإعلان استقلال فلسطين.

مـن جانب آخر يجـب الاعتراف بأنه كانت هنـاك فرحة طاغية من قبل أبناء الشـعب وهم يرون أعلام فلسـطين ترفرف من جديد، ويشـاهدون إخوة لهـم يعودون إلى الوطن. لكـن.. هل كان ممكنًا للشـعب أن يـدرك في تلـك الأيام/الأعياد أنه لم يدخـل ولن يدخل فلسطيني واحد أراضي الضفة أو القطاع إلا بموافقة إسرائيلية؟ وهذا مجرد مثال. فهل أخطأ الوعي الشعبي؟ أم تلك كانت خطيئة الحكام الذين جاؤوه بسلطة منقوصة السيادة إلى حد التبعية؟

يكفي اتفاقية أوسلو سوءًا أنها تركت القضايا الكبرى كمصير القدس، وعودة اللاجئين، والمستوطنات، والحدود... قضايا مؤجلة من دون حلول! وكأن الحلول يفترض فيها أن تأتي سحرية مع المفاوضات النهائية التي كان مقررًا لها أن تُستكمل بعد ثلاث سنوات! غير أنها كانت تتعثر من تأجيل إلى آخر، حتى انتهت إلى تغييب كلي، بينما المستوطنات تزداد عددًا، والجدار العنصري الفاصل الذي لم يُبنَ مثله في التاريخ يبتلع أراضي الفلسطينيين ويحوّل حياتهم اليومية إلى جحيم. لن نسترسل بسرد الظلم الإسرائيلي الذي يطال الشجر والحجر، كما يطال البشر، ولن ننتقل إلى الإجحاف الدولي المتواصل عبر إصدار وثائق لا تقل سوءًا عن أوسلو، كخريطة الطريق التي أكدت على تأجيل المؤجل؛ وكذلك لن ننتقل إلى العذاب المعيشي واليومي الذي يعاني منه المواطن الفلسطيني اليوم، سواء في الضفة أو في القطاع، بسبب الخلافات السياسية بين حكامه، وهو من كان يحلم بشيء من الأمان في «دولة» على أي جزء من الوطن، رمزًا لكل الوطن.

ليس من شك في أن لأصحاب درب السلام على غرار كامب ديفيد، وأوسلو، ووادي عربة، حججهم وآراءهم القائمة على التطورات العالمية والإقليمية والعربية، فكل مرحلة زمنية في تاريخ أي بلد، لا بد وأن تتأثر قرارات حكامها بالتطورات والضغوطات الخارجية، لكن التطورات الدولية من انهيار الاتحاد السوفياتي إلى الأحادية الأميركية في الساحة الدولية ...إلخ؛ ليست موضوعنا، بل الوعي العربي عليها، والواقع أن هذا الوعي تشتت منذ مؤتمر مدريد للسلام، سنة ١٩٩١، وكم كان صعباً إقناع المؤيدين لمنحى السلام بأنه في حقيقته ليس سوى منحى استسلامي، أما اليوم، وبعد

مرور كل هذه السنوات على مؤتمرَي مدريد وأوسلو، فقد سقطت حجج الواهمين، وما عادت كلمة «استسلام» نفسها تكفي لوصف ما يجري على أرض الواقع.

٩ ـ النهج المقاوم في زمن الانحدار العربي

على النقيض مما كان عليه الوعي العربي عمومًا، مشتتًا وحائرًا منذ مؤتمر مدريد، كان وعي أصحاب النهج المقاوم الذين كانوا قد اتخذوا قرارهم الحاسم بالمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي في لبنان، منذ سنة ١٩٨٢، ثم استمروا في القيام بعملياتهم وفي بناء هيكلية تنظيمهم، وهم من أجبروا القوات الإسرائيلية على الانسحاب – ولو لم يكن انسحابًا كاملاً – من لبنان؛ وفي اليوم الذي ابتدأت فيه قوات العدو بالانسحاب، في السادس عشر من شباط ١٩٨٥، وهو يوم الذكرى الأولى لاغتيال الشيخ راغب حرب، شيخ الشهداء، طرح أصحاب النهج المقاوم في رسالة مفتوحة تنظيمهم باسم «حزب الله»، تنظيمًا عقيدته الإسلام، كما طرحوا برنامجهم المتكامل والقائم على الجهاد.

كان طبيعيًا أن يجابه الحزب عدة عقبات داخلية في لبنان، فهو الحزب المقاوم الذي يسير عكس السير في بلد كانت سياسته تجاه إسرائيل يكتنفها الغموض، غير أنه تمكن من أن يتخطى تلك العقبات؛ وفي أيار ١٩٩١ تم انتخاب السيد عباس الموسوي، المجاهد الكبير، أمينًا عامًا للحزب، وهو من كان له الأثر الذي لا يضاهى في تنشئة الشباب على جوهر الإسلام ومبادئ الجهاد، وهو أول من نقل المقاومة من موقع ردود الأفعال إلى موقع القرار والفعل. غير أن العدو الإسرائيلي تمكن من اغتياله في ١٦ شباط ١٩٩٢، ظنًا

منـــه أنه حين يغتال رأس المقاومة يغتال أيضًــا روح المقاومة، فهي لا بد من أن تضـعف وتتلاشـى في زمن الســلام الاستسلامي؛ غير أن حسابات العدو كانت خاطئة، فالسيد الموسوي هو أروع من تكلم عن السلام والاستســلام برؤية عالمية، واستراتيجية إسلامية، تنضح حكمة وبلاغة وإيمانًا:

«السلام لا يجوز اسـتجداؤه من أميركا وإنما الذي يصنع السلام نحن. نحن نؤمن من جملة معتقداتنا أن أحد أسماء الله هو السلام. أحد أهدافنا الأساسية هو نشر السلام في العالم، لكن السلام عادة لا يؤخذ... لا يُستجدى من الآخرين، وإنما السلام تستطيع أنت كأمة أن تؤمنه لنفســك، وأن تؤمّنه لبقية الأمم. أمة رسول الله بنت السلام للعــالم، ونحن قادرون كأمة على بناء الســلام للعالم. وكل ما يصــور من ســلام أميركي هو مجرد استسلام أمام الإرادة الأميركية. هذه هي الحقيقة».

لم يضعف حزب الله على الإطلاق باغتيال أمينه العام، سيد شهداء المقاومة، وكانت أولى أعماله انتخابه للســيد حســن نصر الله، خلفًا له، وهو الذي استمر على خطاه، وهو من أصبح على مرّ السنوات، وعلــى امتداد الوطن العربي، المؤتمن الأول على نهج المقاومة العربية ضــد العدو الإسرائيلي، والصــوت العربي الصــادق الذي تســتمع الملايين إليه، ساعة يتكلم.

أما إسرائيل، فيخطئ من يظن أنها لا تخطئ في حســاباتها ضــد العرب، فسنوات العقد الأخير من القرن العشرين أثبتت كم أخطأت إسرائيــل وهــي تحارب المقاومــة برعونتها المعهــودة، منطلقة من أن حروبًا كهذه لن تكون ســوى جزء بســيط من حروبها السابقة ضد الدول والأنظمة العربية.

ويخطئ أيضًا من يظن أن إسرائيل لم تشنّ «حربًا إعلامية» على «جبهات» أخرى عبر العالم، كي تؤمن النصر لها في حربها ضد المقاومة؛ فالحرب المعلنة وغير المعلنة ضد الإسلام والمسلمين عبر وسائل الإعلام الغربية، وتوجيه التهمة إلى الإسلام بالإرهاب، ورفع شعار محاربة الإرهاب بكل أشكاله، مع المفهوم الضمني الذي يمكن تلخيصه بأن كل مسلم يقف بوجه المحتل فهو «إرهابي»، هذه الحرب الإعلامية المتجسدة في مواقف عنصرية ومقالات مغرضة وحتى في مؤتمرات دولية يحضرها رؤساء من العالم كله، كمؤتمر قمة شرم الشيخ بتاريخ ١٣/٣/١٩٩٦، هي من صناعة إسرائيلية–أميركية بامتياز، ولن نخوض هنا في موضوع اتهام الحركات الإسلامية بالإرهاب، ونكتفي برد الفعل لدى المقاومة الإسلامية في لبنان، وفي مقدمها حزب الله، وهو قيام رجاله بتقديم البراهين النضالية العملية ردًّا على السؤال الأول: كيف يكون الجهاد؟ وعلى السؤال الثاني: من هو المجاهد المسلم المؤمن؟

قامت إسرائيل باجتياحها الثالث للبنان في ٢٥/٧/١٩٩٣، المعروف بـ «عملية تموز»، أو بـ«حرب الأيام السبعة»، أما الإسرائيليون فأطلقوا عليها «تصفية الحسابات»، وهم يقصدون تصفية حساباتهم مع حزب الله، لكنهم في واقع الأمر لم ينجحوا في التصفية، بل ابتدأوا حروبًا من نوع جديد، أمام مقاومة من نوع جديد؛ والواقع أنه على الرغم من الانحدار العربي المتواصل، وعلى الرغم من أن لبنان البلد الصغير مساحة، والبلد المتعدد طائفيًّا وعقائديًّا وثقافيًّا، والبلد المخترق بعدد لا يُحصى من العملاء لإسرائيل، هو آخر البلدان العربية التي يُحسب له الحساب، فهذه المقاومة، بما نشأت عليه من إيمان وصلابة وعقيدة وحنكة وإرادة

لا تلين، تمكنت من اجتذاب الشـعب نحوها، فما كانت حرب مع إسرائيل، إلّا ووقف الشعب اللبناني إلى جانب مقاومته.

شـمل الاجتياح عـدة مناطق من لبنـان، جنوبًا وبقاعًا وشـمالاً وحتى أطراف بيروت، وانتهى إحصائيًّا بمائة واثنين وثلاثين شهيداً، وخمسـمائة جريح، وعشـرات الآلاف من المنازل المدمـرة كليًّا أو جزئيًّـا، ونحو ثلاثمائة ألف نازح، لكـن الأرقام تهون إزاء الذهول الذي أصـاب الذيـن آمنوا بأن لبنان في مرحلة سـلام وإعمار، فأي حرب هذه من بعد مؤتمر مدريد للسلام؟

فشل الاجتياح في نزع سلاح حزب الله، وكان الرئيس الأميركي كلينتون هو من طلب من سـورية وإيران العمل على وقف المعارك، وانتهى الكلام بإرساء تفاهم تموز الضمني وليس الشفهي كما يشاع، ما سـمح لكل فريق بتفسـيره كما يشاء، وهو يقضـي– وفقًا لمنطق الأمور– بعدم تعرض شـمال إسرائيل للكاتيوشـا في مقابل تعهدها بعدم قصف القرى اللبنانية.

قامت إسرائيـل باجتياحها الرابع للبنان في ١١-٢٨/٤/١٩٩٦ مطلقـة علـى عمليتها هـذه «عناقيد الغضـب»، وشـنت عشرات الغارات من اليوم الأول وضربت الضـاحية الجنوبية وعدة مواقع في لبنان جنوبًا وساحلاً وبقاعًا. وكانت المعادلة الإسرائيلية «أمن كريات شمونة في شـمال فلسطين المحتلة مقابل أمن بيروت». وسريعًا كان رد السيد حسن نصر الله: «... إن الرد على الاعتداء الذي حصل في الضـاحية الجنوبية لا يكون في شمال فلسطين بل في مكان آخر، في أي مكان آخر... المكان نحن سـنحدده والزمان نحن سنختاره... ومعادلة بيروت– كريات شـمونة ستسـقط، وإذا كان للعدو سلاح

لم يســتخدمه حتى الآن فإننا نحن أيضًــا لا نملك سلاحًا واحدًا، بل أسلحة متعددة».

لم يكن الساســة الإسرائيليون قد اعتادوا لهجة صــارمة وصمودًا وتحديًــا كهــذا من أي زعيم عربــي، فهذا منطق يتجــاوز منطق النّد للندّ إلى منطق القوي صــاحب الحق والشــجاعة والقدرة على تغيير المعادلات، وما كانت مجزرة قانا إلّا الدليل على ضــعفهم لا قوتهم. أما الكاتيوشــا، فصحيح أنها لا تحرر أرضًا محتلة، لكنها تمكنت من أن تلقن الإسرائيليين درسًــا مفاده أن الدماء العربية ليست مستباحة، وأن تنقــل معــاني الخوف والهلع إلى ســكان المســتعمرات والقرى الإسرائيليــة، وأن تؤدي إلى اعتراف بعضــ العقلاء لديهم بأن هؤلاء ليسوا إرهابيين بل أبطال.

انتهت «عناقيد الغضــب» بتفاهم نيســان المكتــوب غير الموقع، والذي ســاهمت بالتوصــل إليه الولايات المتحدة وفرنســا وإيران، ونص التفاهم على أن تتألف المجموعة المراقبة من الولايات المتحدة وفرنســا وســورية، والمجموعــة الاستشــارية مــن فرنســا والاتحاد الأوروبي وروســيا وأطراف آخرين يســعون إلى إعادة إعمار لبنان، وإن دل كل هــذا على شــيء فهو على عدم قــدرة الولايات المتحدة على التفرد بحل أميركي هذه المرة.

داخليًــا، كانت النتيجة الأهــم هي الوحدة الوطنيــة اللبنانية من جهــة، وإعــادة العمل المشــترك بين المقاومــين، إســلاميين كانوا أو منتمــين إلى أيــة أحزاب أخــرى، وقد كانت قيادة حــزب الله تبدي بتواصل حرصــها على فتح الأبواب أمام جميع المقاومين، فأعلنت عــن قيام السرايــا اللبنانية لمقاومة الاحتلال، وكانــت أولى عملياتها بتاريخ ١٤/٣/١٩٩٨.

وفي فلسطين أيضًا كانت تجري عمليات استشهادية ضد العدو الصهيوني، وكان الاستشهاديون من حركة حماس، والجهاد الإسلامي، وكتائب شهداء الأقصى، وغيرهم، مصرّين على القيام بعملياتهم لإفهام العقل الغربي أنهم أصحاب حق، وأنهم ليسوا راغبين بالموت كرهًا بالحياة، بل حبًّا بالحياة. ولذلك حرصت حركة حماس على القيام بأربع عمليات استشهادية، سنة ١٩٩٦، ومنها ما تزامن مع انعقاد مؤتمر شرم الشيخ الذي ناقش موضوع «الإرهاب».

اقترب القرن العشرون من نهايته، وكان الانسحاب الإسرائيلي من لبنان متوقعًا، لكنه لم يكن متوقعًا أن يتم فجأة، وينتهي سريعًا في ٢٥ أيار ٢٠٠٠، ومن دون أي ثمن، على العكس من الانسحاب الإسرائيلي من سيناء الذي كان باهظ الثمن، والذي احتاج إلى معاهدة سلام ما زالت تكبل أيادي مصر عن نصرة العرب حتى اليوم؛ أما من لبنان، فالانسحاب تمَّ بعد أن يئس باراك من أي اتفاق أمني مع لبنان، فكان ذلك الانسحاب الفجائي برهانًا قاطعًا على انتصار النهج المقاوم.

في فلسطين المحتلة، كان لأبناء القدس وفلسطين موعد مع الانتفاضة الثانية قبل نهاية القرن، ففي ٢٨/٩/٢٠٠٠، توافد الفلسطينيون بالمئات من كل أنحاء فلسطين المحتلة، للتصدي لشارون الذي كان مزمعًا على التحدي بزيارة المسجد الأقصى، فجاؤوا لإفهامه أن للأقصى أبناء يدافعون عنه بأرواحهم، وحتى بصغارهم.

جاء الفلسطينيون في الصباح الباكر من مناطق فلسطين المحتلة وهم يحملون هوياتهم الإسرائيلية بحيث لا تستطيع أن تقول لهم إسرائيل «لا» على هذا الحاجز أو ذاك، والتقى معهم كل من استطاع الوصول وتخطي الحواجز من بقية أنحاء فلسطين. وما أن غادر شارون المكان حتى ابتدأ رشق الحجارة، والاصطدامات، وحتى انبعثت الانتفاضة في فلسطين كلها.

خلال الأيام العشرة الأولى فقط من هذه الانتفاضة أو الثورة، قُتل بدم بارد عدد كبير من الفتيان والصغار الذين ما كانوا يرشقون عدوهم بغير الحجارة، وما كانوا يحملون أي سلاح، والصور تشهد. هكذا قتل الفتى محمد جمال الدرة وهو مع والده. وتشهد الدنيا التي تابعت مقتل الفتى على شاشات التلفزيون أنه ما كان هناك غير الأب وابنه والرصاص. كان الفتى يحاول الاحتماء في حضن والده المستند إلى جدار، كان تارة يصرخ بخوف وألم، وتارة يحاول إبعاد الرصاص عن وجهه بيديه. ذلك المشهد لا يُمحى من ذاكرة كل من شاهده. تلك هي صورة فلسطين التي تحاول صد الهجمات الشرسة طوال قرن من الزمان. أيّ إنسان لم يهزّه هذا المشهد؟ أي وعي عربي بحاجة إلى المزيد كي يدرك أن العدو الصهيوني لا يبحث عن سلام، بل عن استسلام إرادة الأمة العربية كلها، وليس فقط عن استسلام فتى صغير وأبيه وهما يحاولان الاختباء على قارعة طريق في غزة.

١٠ ـ حرب «الـ ٣٣ يومًا»: نهاية أم بداية؟

من لم يتفتح وعيه مع أحداث الانتفاضة، والظلم اليومي لشعب فلسطين، وأرضها، وتاريخها، كان لا بد له من الوقوف مندهشًا

بل ومذهولاً أمام حـرب «الـ ٣٣ يومًا» (تموز- آب ٢٠٠٦). هذه الحـرب كانت حربًا فريدة من نوعهـا بمختلف المقاييس، فالتاريخ لم يسجل بعد حربًا استعمل فيها أحد الفريقين مختلف أنواع الأسلحة، بما فيها تلك المحرمة دوليًا، جوًا وبحراً وبرًا، وانشغل بها العالم كله، وما هي في حقيقة الأمر سوى حرب بين دولة وحزب!

لا مجـال للمقارنـة بين عناصر القوة التي تمتلكهـا «الدولة» مهما صـغرت، وتلك التـي يمتلكها «الحـزب» مهما كـبر! فكيف حين تكون «الدولة» مدعومة من أقوى دولة في العالم، بينما الحزب متهم بأنه حزب إرهابي!

مع ذلـك، تُهزم الدولة أمام الحزب، بتحليـل كتّابها ومفكريها، وبشهادات ضباطها وجنودها الذين خاضوا هذه الحرب.

نكتفـي بالأرقام من المصـادر الإسرائيليـة الرسـمية، والتي جاء فيهـا أن حـزب الله أطلق ٣٧٩٠ صـاروخًا على إسرائيـل؛ وأنه قد سـقط منهم ١٥٤ قتيلاً، بينهم ١١٧ من الضباط والجنود، أمّا عدد الجرحـى فأكثر مـن ٤٢٢ جريحًا، وأمّا عـدد النازحين عن مدنهم ومستعمراتهم فيقدّر بمئات الآلاف، ولا إحصاء رسميًا معترفًا به.

مصـادر حزب الله تقول: إن الصواريخ التي أطلقها يفوق العدد الذي يعترف به العدو الإسرائيلي، وإن خسائر العدو أكبر بكثير، ليس في عدد القتلى فحسـب، بل في الإصـابات المباشرة على مدن حيفا وعكا وطبريّا وصـفد والعفولة والمسـتعمرات، كمـا على الثكنات العسـكرية والمواقـع العسـكرية المختلفـة، وهـذا ما يؤكـده مقتل العشرات من العسكريين، على الرغم من التعتيم الإسرائيلي الرسمي إلى أقصى الحدود بالنسبة إلى ضرب المواقع العسكرية.

أما شهداء حزب الله من المجاهدين، فكان الحزب يعلن أسماءهم في أثناء الحرب، إلاّ في الحالات الأمنية التي كانت تستدعي عدم ذكر الأسماء، والعدد أقل بكثير من عدد قتلى العسكريين الإسرائيليين.

أما استمرار إسرائيل بقصف الأحياء المدنية، والجسور، والقرى، والمزارع، والسيارات، وهدم الأبنية العالية على رؤوس ساكنيها، حتى فاق عدد الضحايا من المدنيين اللبنانيين الألف ضحية، وفاق عدد الجرحى أضعاف هذا العدد، كما فاق عدد الذين اضطروا إلى النزوح المليون نازحًا، فهو الدليل على ضعف العدو لا قوّته. موقع القوة كان في المجابهات في القرى الحدودية، حيث كان يمضي نهار بعد نهار، فلا تتقدم دبابات العدو مسافة أمتار حتى ترتد متراجعة!

هل تكون هذه نهاية الحروب العربية – الإسرائيلية؟ وهل ينتهي معها الصراع العربي–الإسرائيلي؟ هل يدخل كل العرب «عصر الاستسلام» علنًا، بعد أن دخله معظم قادته سرًّا؟ أم أن هذه الحرب ليست سوى بداية لمرحلة جديدة من الصراع؟

لو قارنّا بين حرب «الـ ٣٣ يومًا» وما سبقها من الحروب العربية–الإسرائيلية، فمن أبرز نتائج هذه الحرب الأخيرة عربيًا، وإسلاميًّا، ولبنانيًا، وفلسطينيًّا، هو في كونها ركزت وضع البوصلة في الصراع مع العدو الصهيوني نحو الاتجاه الصحيح: اتجاه المقاومة.

وما هذه الحرب في حقيقتها سوى نهاية وبداية، فهي نهاية لتاريخ من الحروب العربية–الإسرائيلية كانت فيه عملية إخفاء الحقائق والتعهدات السرية وتضليل الشعوب تقوم بدور أعلى الجنرالات رتبة. وهي أيضًا بداية لعصر المقاومة الذي انبثق فجره في العام ١٩٨٢.

مـر نحو ربع قرن ما بين عملية نسـف مقر الحاكم الإسرائيلي في مدينة صـور وحرب «الـ ٣٣ يومًـا»، لم تكن خلاله المقاومة اللبنانية وحدها على النهج المقاوم، فمن أسس نجاحها أنها تمكنت من تفجير الوعـي العربي ما بـين محيط وخليج علـى طبيعة الصراع العربي–الإسرائيلـي، وتمكنت من إرسـاء دعائم الصـمود والتحدي لمقاومة المشـاريع الصـهيونية/الإسرائيلية، ليس في لبنـان وحده، وليس من عنق الزجاجة لمزارع شبعا وحدها، فالمقاومة اللبنانية أضحت سراجًا مضـيئًا يهتدي به الآخرون، ففي فلسـطين لم تتوقف المقاومة يومًا، فالأم التي تمسـك بالجندي الإسرائيلي لتخلّص من يديه فتى شجاعًا، تكون هي الأخرى شجاعة ورمزًا للمقاومة؛ أما على صعيد النضال الشعبي، فقد شـمل نشـاط الجبهات والأحزاب في العالمين العربي والإسلامي مؤتمرات وتجمعات ومسيرات نضالية، والقائمون عليها يؤمنـون بالحق، وبالعدالة، وبفلسـطين القضـية والشـعب، أرضِ الحضارة الكنعانية، ومهدِ السيد المسيح ، ومسرى الرسول الأمين.

قال السـيد حسـن نصر الله في خطابه التاريخي في اليوم الثالث لحرب تمـوز، بتاريخ ١٤/٧/٢٠٠٦: «... إننا أمام خيار من اثنين، إما أن نخضـع للشروط الإسرائيلية الكاملة بضـغط أميركي ودولي وللأسـف عربي، وإما أن نصمد ونصـبر ونتوحد ونواجه...» وفي الخطاب نفسـه، وبينما العيون في كل مجلس عربي لا تفارق شاشـة التلفزيون، إذ بالسيد نصر الله يقول:

«المفاجآت التي وعدتكم بها سوف تبدأ من الآن، فالآن في عرض البحـر في مقابل بيروت البارجة الحربية العسـكرية الإسرائيلية التي اعتدت علـى بنيتنا التحتية وعلى بيوت الناس وعلى المدنيين انظروا إليها تحترق وستغرق ومعها عشرات العسكريين الصهاينة...».

ولم يصدق الناس ما يسمعون. تلك الدقائق من عمر الأمة قررت مصير الأمة إلى عقود قادمة، ها هو نصر الله، سيد المقاومة، يتوج عصر المقاومة بالحقائق، ها هو يعلن قدرة الأمة العربية على مقاومة الظلم والاعتـداء، على دحر إسرائيل، كما أعلـن عبد الناصر، زعيم الأمة، قبل خمسـين عامًا، تأميم قناة السـويس، بتاريـخ ١٩٥٦/٧/٢٦، في خطابـه التاريخـي في عيد الثورة، متحديًا الاسـتعمار، والعرب يستمعون إليه عبر المذياع، وهم يكادون لا يصدقون ما يسمعون.

وفي حرب تموز المجيدة أيضًا، خاطب السيد حسن نصر الله رجال المقاومة بأشرف الكلمات وأصدقها، وبكى الملايين وهم يستمعون إلى كلماتـه العاطفية التي عبرت عن حبه الكبـير للمقاومين الشرفاء البواسـل، غير أن خطابـه ذاك، كما هي سـائر خطاباته وخطابات المسؤولين في حزب الله، فكلها تعبّر بشكل أساسي عن أهمية النهج المقـاوم الـذي لا بديل عنه في زماننا هذا، كمـا تعبر عن التآخي بين العقـل والوجـدان في النهج المقـاوم، وعلى أن الجهـاد هو الجهاد، وأنـه ليس إرهابًا. ونقتطف مما قاله سـيد المقاومة مخاطبًا رجال الله، بكلمات هي روح المقاومة وحاضرها ومستقبلها:

«أقبل رؤوسكم التي أعلت كل رأس، وأقبل أياديكم القابضة على الزناد، وأقبل أقدامكم المنغرسة في الأرض فلا ترتجف ولا تزول من مقامها ولو زالت الجبال... يا من أعرتم الله جماجمكم، ونظرتم إلى أقصى القوم، أنتم السادة وأنتم تاج الرؤوس ومفخرة الامة، ورجال الله الذين بهم ننتصر...

وأنتـم أصـالة تاريخ هـذه الأمة وحضـارتها وثقافتهـا وعنوان رجولتها، كنتم وما زلتم وستبقون الأمل والرهان...

أنتم النصر الآتي...

أنتم الوعد الصادق».

١١ ـ الحرب على قطاع غزة: أسطورة الشعب الصامد

أخطأ المناضلون العرب حين ظنوا بأن إسرائيل (ما بعد ٢٠٠٦) لا بد من أن تحسب ألف حساب قبل أن تفكر بحرب ضد المقاومة في لبنان أو فلسطين، فالذي حدث أنها قامت بشن أبشع حروبها همجية على قطاع غزة المحاصَر أصلاً، في ٢٧ كانون الأول ٢٠٠٨. وما لم يحسب المناضلون له أي حساب هو المدى الذي يمكن أن يذهب إليه بعض الحكام العرب إلى جانب إسرائيل، لا إلى جانب المحاصَرين في قطاع غزة!

ولنتوقف عند اليوم الأول للحرب نموذجًا، حين هاجمت خمسون طائرة إسرائيلية حربية غزة وألقت مائة قنبلة على خمسين هدفًا من مراكز ومقرات تدريب لحركة حماس وغيرها من المجموعات المقاومة، في هجوم صاعق لمدة ثلاث دقائق؛ ثم كان الهجوم الصاعق الثاني بعد نصف ساعة، فهاجمت ستون طائرة ستين هدفًا محددًا، وسقط في هذا اليوم الأول ٢٢٨ شهيدًا و ٤٧٨ جريحًا؛ وهكذا استمر القصف الإسرائيلي على مدى ثلاثة وعشرين يومًا، طال فيها المساجد ودور العبادة والمؤسسات التعليمية والمباني الرسمية والمستشفيات ومستودعات الأدوية ومراكز الإعلام، ونجح العدو في اغتيال قادة مسؤولين كان منهم وزير الداخلية الشهيد سعيد صيام. ومنذ الهجوم البري في اليوم الثامن، أخذ القصف يتركز على البيوت الآهلة بالسكان، وقد هدم الكثير منها بأكملها على رؤوس ساكنيها من دون أي تمييز بين رجل وامرأة وطفل.

بالمقابـل، سـقطت علـى إسرائيل صـواريخ القسّـام وغيرها من الصواريخ والقذائف، خصوصًا في منطقة إشكول بالنقب، وحتسريم القاعـدة الجوية، ونتيفوت، كما تمكن المقاومون من تفجير عدد من الدبابات والمروحيات ومن الاشـتباك مع العـدو مواجهة. ولم ترفع غـزة الراية البيضـاء على الرغم من انعدام فرص التكافؤ بالسـلاح، وعلى الرغم من النقص الهائل في الدواء والغذاء، وكان قد مر ثمانية عشر يومًا على الحصـار الخانق والحـرب الجهنمية حين تمكن ثمانية وعشرون طبيبًا من دخول قطاع غزة! ويا لهول ما رأوا وما شاهدوا وما شـهدوا به! ففي هذه الحرب كانت الأسلحة المحرمة دوليًّا هي المستعملة يوميًّا، وكأن غزة ليست من هذا العالم، بل حقل تجارب!

الواقع أنه حين اجتاحت جحافل الجيش الذي لا يُقهر قطاع غزة، ما كان ذاك الاجتياح ضـد غزة وحدها، ولا ضـد المقاومة الباسـلة التي ضـمت مقاوميها الشرفاء من حركة حماس والجهاد الإسلامي وكتائب شـهداء الأقصى ومختلف التنظيمات الفلسطينية، وحدهـم، ولا ضـد شعب غزة الذي دفع أغلى الأثمان، وحده، بل ضد ما هو أبعد من ذلك بكثير، ضـد نهج المقاومة الذي كرسته حرب «الـ ٣٣ يومًا»، وضـد الحلم العربي بالنصر علـى إسرائيل، ذلك الحلم الذي أضحى حقيقة سنة ٢٠٠٦، وضد النضال العربي من أجل أن يصبح العرب حقًّا أمةً بين الأمم المتطورة، عوضًـا عن البقاء شـعوبًا تخشى حكامها، وحكامًا يخشـون غيرهـم من الحكام، وأولهم سيد البيت الأبيض.

في خطاب لرئيس الوزراء إسماعيل هنية ألقاه في اليوم الأول من العام ٢٠٠٩، وهو اليوم الخامس للحرب، وصف -الرئيس المنتخب من قبل الشـعب والمقال من قبل رئيس السلطة الفلسطينية - الحرب

على غزة بـ «حرب الفرقان»، لأن الوضع عما قبلها سيختلف عما بعدها؛ وبكل ما يعتمر ابن مخيم الشاطئ من إيمان وما يتميز به من صلابة، بشر ببوادر النصر: «غزة سوف تنتصر». وفعلاً.. انتصرت غزة بصمودها الأسطوري.

وكانت هذه الحرب «حرب الفرقان» فعلاً، لكن ليس في غزة وحدها، بل في مسيرة الصراع العربي – الإسرائيلي، فهي الحرب الوحيدة التي ظهرت معها الانقسامات العربية واضحة بين أصحاب كل من النهجين اللذين يحكمان مسيرة الصراع العربي – الإسرائيلي بعد ستين عامًا من الصراع، وهما النهج المقاوم والنهج السلمي/الاستسلامي، فما قبل هذه الحرب شيء، وما بعدها شيء آخر، وهذا ما سوف تثبته الأيام.

و«حرب الفرقان» هذه تجاوزت حدود البلدان العربية وعواصمها، فكما سارت التظاهرات في العواصم العربية سارت في مختلف العواصم والمدن في العالم تندد بالحصار وبالحرب العدوانية الهمجية، وارتفعت أصوات من دول غير عربية لتقول: ما كان على الحكام العرب أن يقولوه أو يفعلوه، ارتفعت أصوات الحكام في إيران وتركيا وفنزويلا وبوليفيا، وكان الرئيس الفنزويلي هو من طرد السفير الإسرائيلي من بلده احتجاجًا على العدوان على غزة في ٢٠٠٩/١/٧، وكان الرئيس البوليفي هو من قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل في ٢٠٠٩/١/١٤، بينما السجون في مصر، البلد العربي الوحيد المجاور لغزة المحاصَرة، كانت تستقبل الذين قبضت عليهم الشرطة متلبسين بجريمة إدخال الدواء أو الغذاء أو السلاح إلى الصامدين المحاصَرين، والمدافعين عن شرف الأمة.

مـن المؤكد أن الحرب على غزة لن تكون آخر الحروب، وما كان النصر الذي تحقق في الحرب التي سبقتها، حرب تموز، حقًّا معجزة، بل كان برهانًا على قدرة الإنسـان العربي المقاوم على أن يصمد في الحـرب، وعلـى أن يقـول: «لا» للظلم والعدوان، وقـد تكرر هذا الصـمود في غزة، وقد يتكرر مستقبلاً، في أية أرض عربية، فالخطر الإسرائيلي ليس على فلسـطين وحدها، أو لبنان وحده، أو سـورية وحدهـا. أما الحرب الأخيرة فموعدها حين يصـبح للمقاومة الحرة مـكان في حيـاة الأمة، وهـذا مـؤداه أن يكون الاسـتعداد لتحرير المقدسـات وللدفاع عن النفس والصمود قائمًا في كل لحظة، وحين يتم ذلك، تصبح إسرائيل هي التي تخشى العرب، وتخشى الحرب. فإسرائيل، «صانعة الحروب»، لم تصـنع يومًا حربًا بقدراتها الذاتية، وهـي غير مؤهلة لصـنع سـلام، فهي لا تطرح مشـاريع سـلام بل استسلام، كونها تسـتند إلى القوة الكبرى المهيمنة، أكانت بريطانيا بالأمس، أم الولايات المتحدة اليوم.

١٢ ـ تطور الوعي العربي

طرحنا في البند الأول جوهر الإشكالية الأساسية، وهي التناقضات في النظـرة إلى العدو وفي فهم طبيعة الصـراع العربي – الإسرائيلي، وظهر لنا من خلال المحطات التاريخية التي توقفنا عندها أن الوعي العربي، بشكل عام، مرَّ في أربع مراحل:

في المرحلـة الأولى، أي مرحلة النكبـة، كان الوعي العربي موحدًا على الصـعيد الشـعبي – على الأقـل – وكانت المأسـاة يومذاك أن التناقض الفعلي القائم بين الشـعوب والحـكام لم يلحظه كثيرًا حتى المفكرون وقادة الرأي، فتلك هي التجربة الصـدامية الأولى، والكل كان في حالة انعدام وزن.

في المرحلـة الثانيـة، وهي مرحلة الثورات والانقلابات العسـكرية والتجربـة الوحدويـة وتطور الأحـزاب العربية، أي مـا بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٧٣، فالبوصـلة توجهـت في معظـم الحـالات نحو وحـدة الرؤية العربيـة الواحدة في النظرة إلى الصـراع، وذلك على الرغم من آثار حرب النكسة، ومن رحيل عبد الناصر.

في المرحلـة الثالثة، وهي التي ابتدأت مـع تداعيات حرب العبور، والشـكوك مـن جـدوى الحـروب، فمعالمهـا ظهرت مـن خلال الانقسام العربي تجاه الموقف من إسرائيل مع اتفاقيات السلام المصرية – الإسرائيليـة، وجـاء الاجتيـاح الإسرائيلي للبنان ليشـكّل مفترق طرق في مفهوم الوعي العربي الحقيقي على الخطر الصـهيوني، فهذا الاجتياح شـهد خروج مصر عن الصـف العربي، عمليًّا، كما شهد اكتفـاء غيرها من دول العرب بالمسـاندة الكلامية. ومن عمق تجربة الاجتياح ولدت المقاومة اللبنانية التي سطرت نهجًا جديدًا لا بديل عنه، تكرس مع مرور السنوات.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة ، فقد ولدت مع مؤتمر مدريد للسلام، ونمـت في غياب القطـب السـوفياتي وأحادية القطـب الأميركي، واستمرت تحت شعارَي «العولمة» و«الديمقراطية» القادمة مع الغزو الأميركي لبلاد العرب. في هذه المرحلة نشـاهد الانقسامات الحادة والاختلافـات البيّنـة بين العرب في التعامل مـع إسرائيل، فهي دولة عدوة للبعض، ودولة صديقة للبعض الآخر، ودولة لا بد من التطبيع معها لآخرين.

الواقع أن الوعي العربي لم يعرف الانقسـامات الحادّة في بدايات الصراع، أو في أوج الصراع، أو حتى في قعر الهزيمة، فالوعي العربي

لم يتشـتت إلا منذ «اتفاقيات السـلام» التي تبدلـت معها الأحجام والمواقع، فأصـبح العملاء وطنيين! وأصـبح الذيـن وقّعوا مع العدو على اتفاقيات مهينة لشعوبهم وأوطانهم، أبطالَ سلام!

ولما كان الوعي الحقيقي يولد من ساحة الميدان، ومن واقع البطولة والصمود، كما جـرى في لبنان (٢٠٠٦)، وفي غـزة (٢٠٠٨ – ٢٠٠٩)، وكما يجري يوميًّا في شوارع القدس العربية، فلا خوف علـى الوعي الجماهيري العربي الذي وصـل إلى ذروته إبان الحرب الأخيرة على غزة، غير أن هذا لا ينفي ضرورة التنبه للإعلام بوسائله المتعـددة، وكيفيـة عرض الحقائق، وكيفيـة التصـدي للحملات المغرضة.

الأمـة العربيـة اليوم تواجه مخاطر لم تجابهها في أي وقت مضـى، وهي مخاطر تمس المبادئ والقيم والوطنية ومعرفة العدو من الصديق، ويخطـئ من يظن أن هذه الانقسـامات والاختلافات في السياسـة المعاصـرة وفي مقدمها الصراع العربـي – الإسرائيلي يمكن تجاوزها باللجوء إلى المنطق السائد في هذه المرحلة الاستسلامية، وهو المنطق القائـم على ادعاء المعرفة التامـة بطبيعة العـدو الإسرائيلي العدوانية العنصريـة، غـير أنه بسـبب عـدم المقدرة علـى التصـدي لإسرائيل وحليفتها الكبرى الولايات المتحدة، فلا بد إذًا من الخضـوع للسيد الأميركي، ولا بد من السير على طريق السلام الموعود!

أما النقاش الذي لم يهدأ مؤخرًا في لبنان بشأن مصدر القرار بشأن الحرب والسـلم، فمن الطبيعي أن يكون مثل هذا القرار بيد الدولة، كما الحال في الدول المستقلة، غير أنه من خلال واقع الصراع العربي – الإسرائيلي، فالقرار بالحرب ما كان يومًا إلّا قرارًا إسرائيليًّا، باستثناء

حرب الاستنزاف، فحتى حرب النكبة «المسرحية» كانت رد فعل، وأما حرب العبور فما زالت بحاجة إلى كشف المخبأ من أسرارها.. إذًا ماذا سيفعل لبنان إنْ تعرض لاجتياح جديد؟ هل المشكلة في مصدر القرار؟ أم المشكلة في الإرادة وتوفير القدرة على التصدي والدفاع؟

ليس من طريق لإنهاء الصراع العربي –الإسرائيلي من دون عودة الحقوق إلى أصحابها، وقد أثبتت المقاومة الباسلة قدرتها على التصدي وتحقيق النصر، وليس المطلوب من الدول العربية شن حرب ضد إسرائيل، بل المطلوب الاستعداد للدفاع عن الأمة والوطن، فإسرائيل نفسها هي التي تبتعد عن الحرب حين تتيقن من أن العرب على استعداد تام للحرب.

١٣ ـ بناء الذاكرة العربية

هناك إشكالية عامة تعاني منها الذاكرة الجماعية لدى كل الشعوب، حتى شعوب الدول التي توصف بالمتقدمة أو بالديمقراطية، وتتلخص هذه الإشكالية في أن القوى السياسية صاحبة النفوذ في الدولة لها اليد العليا في فرض الكتب التاريخية، وفي بناء المتاحف، وفي إقامة النصب التذكارية، وفي صناعة الأفلام، وفي نشر الأحداث والحقائق؛ وفي تكريس أبطال وقادة دون غيرهم.. اما الأوضاع في الدول التي لا توصف بالديمقراطية، كدول العالم الثالث أو الرابع... فهي أكثر سوءًا، إذ إنّ نفوذ أصحاب السلطة في بلد ما يصل بهم إلى محاولات محو ذاكرة شعوبهم، فما يقولونه برأيهم هو «التاريخ»، وما يخبئونه من الوثائق قد لا تصل إليها يد. والدول العربية – بشكل عام – من الدول التي ما زالت تتجاهل وثائقها إلى حد النسيان،

فهي لا تفرج عنها كالدول المتقدمة بعد سنوات محددة، كعشرين سنة أو ثلاثين، بل تستمر في حجبها وفي فرض ما تشاء من «نظريات» و«وقائع».

لكنه ما دمنا اليوم نعيش في عصر الفضائيات والإنترنيت، أيْ في عصر التقدم المذهل في وسائل الإعلام الحديثة والمتطورة، فما عادت حتى الأنظمة المتخلفة التي اعتادت حرمان شعوبها من أي كتاب لا يوافق أهواءها، بقادرة على الاستمرار على هذا الطريق، فالمشكلة لم تعد في كيفية إيصال المادة مكتوبة أو مرئية أو مسموعة، بل المشكلة في اختيار المواضيع والمادة نفسها، قديمها وحديثها، فالذاكرة الجماعية ليست عملية تراكمية أو تجميعية، بل هي عملية انتقاء وصياغة بناء على أهداف وبرامج يساهم فيها عقلاء الأمة، وقادة الرأي، والمناضلون، والكتّاب، والمؤرخون، والفنانون، ورجال الإعلام.. حتى الصغار برسوماتهم البريئة يساهمون في صنع الذاكرة.

أما الأهمية الكبرى للذاكرة الجماعية فتتجاوز التفاصيل إلى المعنى، فمكان التفاصيل في الكتب المدرسية التاريخية والموسوعات، وغيرها، أما الذاكرة الجماعية فأهميتها في الجوهر، وفي الرسالة التي تنتقل من جيل إلى آخر، ومن هنا فالحوارات التاريخية والثقافية، والمقالات التحليلية، والبرامج التلفزيونية، كلها تضيف إلى المعنى وتوضحه. وهذا مؤداه أن الذاكرة الجماعية عرضة لكي يضاف إليها، فالمعاني نفسها قد تتغير من زمان إلى آخر، أو من جماعة إلى أخرى في الأمة الواحدة.

وفي موضـوع الصـراع العربي – الإسرائيلـي لا يجوز أن يقتصر العمـل في بناء الذاكرة العربية على التاريـخ المعاصر، ذلك أن العدو لم يستـولِ على الحاضر، وحده، بل على الماضـي، فهو يدّعي تاريخ فلسطين كله لنفسه، ويتنكر لوجود الحضارة الكنعانية الأولى، مدعيًا أن حضـارته الإسرائيلية القديمة هي الأولى، وكذلك يتنكر للحضارة العربية الإسلامية التي سادت البلاد منذ الفتح، أي منذ القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد. ومن أجل إثبات حقه المزعوم في فلسطين، فالعدو يعمل بتواصـل على بنـاء الذاكرة الجماعيـة الإسرائيلية على الأضاليل التي برع في تحويلها إلى «حقائق»، غير أن الجانب العربي ليس بحاجة إلى اللجوء إلى الأكاذيب والأضـاليل، فهو بحاجة فقط إلى مـن يعيد كتابة المحطـات التاريخية، وصـياغتها، وتقديمها إلى الأجيال الصاعدة.

الخاتمة

لا تنبع أهمية طرح موضـوع الوعي والذاكرة خوفًا من النسيان، فحسب، لكن خوفًا على الضمير العربي من أن يعتاد الهوان، وخوفًا على الحقائق من أن يشوهها الإعلام المضاد الذي لم يكن له من وجود قبل سـتين عامًا، أو أن تشوهها «ثقافة السـلام» الآخذة بالانتشار، هذه الثقافة المسـتوردة التي أضحت معانيها ومفرداتها شرطًا لقبول الخطاب السياسـي العربي أميركيًـا ودوليًا، ومن أهم معانيها القبول بأن الجهاد إرهاب، وأن محاربة الإسلام لا بد منها لمحاربة الإرهاب. وقد تناسـى هؤلاء أن الإرهاب اختراع أميركـي، وأن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ نفسـها ليست سوى صـناعة أميركية المنشأ، وهذا ما ابتدأ كتاب ومفكرون أميركيون بالجهر به!

أما نحن العرب، المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾، فنحن نعلم أن «رباط الخيل» كان أيام القسّام مسدسات، وبواريد، وعصبة من المجاهدين المؤمنين لم تصمد أكثر من ساعتين في المعركة، غير أنها طرحت بدمائها الزكية نهج المقاومة نهجًا لا بديل عنه؛ أما «رباط الخيل» في أيامنا هذه، أيام نصر الله، فهو صواريخ تنصب على العدو من حيث لا يعلم، ونيران تحرق بواخره في عرض البحر، وحزب مجاهد ينتصر بعد قتال ثلاثة وثلاثين يومًا بشجاعة لا حدود لها، على الدولة المدعومة من أقوى دولة في العالم دعمًا لا حدود له. هكذا، طرح سيد المقاومة، في القرن الواحد والعشرين، نهج المقاومة نهجًا لا بديل عنه.

وبكلمات أخيرة: لا سلام هناك من غير الاستعداد الكامل للحرب، وبناء الذات، وتنمية القدرة على النصر في الحرب.

والسلام له ثمن، والثمن ليس مالاً فقط، أو بترولاً فقط، أو مزيدًا من التنازلات للعدو، فالسلام يصنعه المؤمنون بأمتهم العربية، والعاملون من أجلها، فهذه الأمة مجتمعة تمتلك من أسباب القوة ما يجعلها في مصاف الدول الكبرى. ولا سبيل إلّا بأن تتوحد قواها الوطنية والإسلامية، ففي وحدتها مستقبل الأمة.